المستقبل للغة العربية الفصحى

الأستاذ هنري فليش
(جامعة بيروت)

اهدتنا المطبعة الكاثوليكية ببيروت كتيبا قيما للاستاذ المستعرب هنري فليش Henri Fleisch بالفرنسية حول اللغة الفصحى واللغة العامية ، نقتبس منه مقدمته شاكرين للاستاذ الكريم دفاعه عن لغة الضاد التي هي المقوم الجوهري لوحدة الشعوب العربية فى الحقل الثقافي :

وقد أرفق سيادته هذا البحث بمذكرة حلل فيها اسئلة الاستفتاء :

قال سيادته :

ان الموقف العام الذي يتخذه العالم العربي الاسلامي حيال لهجات بلدانه يتضح كما يلي : فهذا العالم ليس بمطلع على الامر اطلاعا صحيحا اذ انه لا يعرف ما المقصود بلهجة وما المقصود بلغة عامة . كما يجهل الدور الذي اضطلعت به اللهجة واللغة العامة فى حياة العرب .

وعليه ، نرى صاحب المقال يعرض اولا مفاهيم علم اللغة العام حول هذين الوضعين من اللغة : اللهجة ، وهي الحالة الطبيعية للغة ما ، واللغة العامة التي هي امتداد ونمو لهجة فوق اللهجات الاخرى ، بفضل ظروف خاصة ، لتحل محل لغة علاقة وثقافة ، وكل ذلك معزز بمثل اربع من اللغات الاوربية الكبرى. ثم انه يبحث اثر اللهجة واللغة العامة فى ثلاثة اوضاع تاريخية كبرى من حياة العرب اللغوية .

وضع أول : الحالة اللغوية فى الجزيرة العربية، على ايام الجاهلية .

فنجد لغة عامة للشعر واللهجات .

وضع ثان : المشاكل اللغوية التي اعترضت العالم العربي الاسلامي ، مباشرة بعد الفتوحات العظيمة ، حتى منذ موت الخليفة عمر بن الخطاب (24هـ — 644م) . فتحقق منذ هذا التاريخ فقدان الاعراب فى كلام المستعربين ، مما يشكل بداية اللغة العامية والضرورة الحيوية لمبادىء فى الصرف والنحو.

وضع ثالث : ارساء اللغة الادبية على القواعد بفضل جهود النحاة . ويفصح عن ذلك كتاب سيبويه (المتوفى سنة 177هـ) وهو تصنيف ينطوي على اهمية قصوى . فكل الادب العربي الاسلامي قد كتب فى هذه اللغة البيانية الخاضعة للقواعد ، والمثبتة ، ولكن مع بعض تنازلات توجب عليه مع الزمن ، ان يسلم بها اللسان العربي المتوسط . وكانت اللغة العامية وهي لغة حية ، تسير على سنتها الطبيعية : كانت تتطور . وما الوضع الحاضر سوى استمرار واتساع للوضع اللغوي الاول فى عهد الخلفاء : لغة كتابية تقتصر على قواعد كتاب سيبويه ولغة محكية عامية كثيرة التنوع . بعد قرون من تطور هذه اللغة الحية .

ولابد للعالم العربي الاسلامي الحاضر ، كي يرى بجلاء فى وضعه اللغوي ، من ان يعرف ما يلي : اولا ، انه يمكن العيش مع لغة كتابية للثقافة ولهجات متطورة ، ولنا مثل على ذلك من اللغة الالمانية. الا انه ينبغي له ان يسد نقصين خطيرين ، اولهما السعي ، على الاقل من اجل الاستعمال العام ، لايجاد وسيلة تتيح وضع علامة على الحروف الصوتية القصيرة فى طريقة الكتابة العربية ، وثانيهما تجديد مبادىء الصرف والنحو القديمة والمعقدة والمستكرهة ، ثم ان اللغة العربية الفصحى الحديثة متأخرة عن زمانها ثلاثة قرون من الواجب اللحاق بها، اجل ان هناك عملا قد تم . ولكن يقتضي هذه اللغة أن تتبع تطورا يكون كتطور جسم عضوي . ولا يمكن بلوغ الغرض الا بواسطة كتاب محدثين ، متشبعين من الاقدمين ، بواسطة كتاب حقيقيين ، واسعي الثقافة ، يتصورون عالمهم بلغة عربية فصحى صحيحة وحديثة . واخيرا ، ان المستقبل هو للغة العربية الفصحى الحديثة ، ذلك لان ما للغة الادبية من نفوذ بعيد المدى يقطع الطريق ، الآن والى امد طويل ، على كل محاولة ترمي الى اقامة لهجة ثقافة باللغة العامة . وليس بمجد ان تحتقر اللهجات التي هي من جهة اخرى ، مصدر تعاليم لغوية .

عشر فى واجهات الكنائس الرومية ثم رايناها فيما بعد تختلط فى الكنائس القوطية مع العناصر الواردة من فرنسة » .

ويوضح هذا القول ما نراه فى واجهة كاتدرائية انغوليم فى فرنسا حيث نرى تمثال المسيح وحوله اسد مجنح مستوحى من الزخرفة النباتية فى الفنون العربية، اما المسيح فان اسلوبه شرقي محض .

وفى لانغدوك فى ساحة مواساك اعمدة مزدوجة كتلك الموجودة فى الاندلس ذات تيجان مزخرفة برقش عربي وكتابات عربية بالخط الكوفي تعلو التاج ، ولكنها كتابات منقولة تصعب قراءتها وقد لا تكون لها دلالة قط .

وهكذا انتقل الحرف العربي الى اماكن متطرفة من العالم وتصدر واجهات الكنائس والاديرة، ولقد كانت صفاته الفنية كعنصر فذ من عناصر التزيين سبب انتقاله واحلاله المكانة اللائقة من التقدير ولم يحل مضمونه الديني المخالف دون استعارته فى اهم الاعمال الفنية والآثار . واستمر ذلك ما بقيت تلك الآثار والاوابد قائمة مئات السنين ولم تستطع حتى العصبيات المتزمتة ان تمحي آثاره مع الايام .

ومنذ بداية القرن الماضي كان ثمة اهتمام من قبل الفنانين والمفكرين بالفن والرقش العربي .

وفى مستهل هذا القرن ، وقد بدت الامة العربية شيئا فشيئا اقدر على التعبير عن نهضتها وتراثها ، اشتد الاهتمام بالعرب وآثارهم وتقاليدهم الفنية . وتركز هذا الاهتمام بالرقش العربي لقرابته من مفهوم التجريدية التي سرت تقليدا فنيا قويا فى هذا القرن .

مما لا شك فيه يبقى الحرف العربي من اجمل الصيغ المجردة خاصة بالنسبة لانسان لا يفقه دلالة هذا الحرف او ينسى هذه الدلالة لكي يستفيد من الشكل الجمالي للحرف .

وهكذا ظهر من الفنانين التجريديين المعاصرين فى اوربا من استعمل الحرف العربي فكان مدرسة مستقلة ذات اطار مستقل متميز ولقد تجلى هذا الاتجاه قويا واضحا عند بول كلي P. Klee ونالارد Nallard وهوفر Hoeffer وديغوتكس Degottex وتروكس Trox ومانوسيه Manessier

اما اعمال كلي التي تتضمن نماذج عن الخط الجميل العربي او غيره من الخطوط فهي كثيرة وتمتاز بالتطوير والتحوير . ولقد استمرأ كلي الخط العربي الذي يكتب من اليمين الى اليسار (19) نظرا لان كلي كان اعسر بل كان يستطيع التصوير باليد اليسري بنفس قوة اليد اليمنى ، وكان يطيب له ان يكتب جملا برمتها باللغة العربية باشكال الخط العربي الجميل ولكن دون ان يكون بمقدوره قراءتها او فهمها مع انه حاول ان يتعلم العربية .

ولقد امتاز اسلوب لويس نالار (المولود فى الجزائر عام 1918) باستعمال الكتابة العربية مع التصوير مستوحيا ذلك من الرقش العربي .

اما كارل جورج هوفر Hoeffer (المولود فى سيليسيا عام 1914) فلقد جذبته رشاقة الخط العربي وخاصة النسخي منه فاقام اسلوبه على اساس هذا الخط . وفى مدينة اوفنباخ فى المانيا متحف للكتابة وحسن الخط ضم مجموعات رائعة للخطوط العربية الاثرية كما ضم بعض اعمال هوفر للمقارنة وتحديد التاثير العربي على اسلوبه .

ولم يقصر الفنانون العرب الحديثون فى الافادة من الحرف العربي فى اعمالهم التصويرية الحديثة نذكر منهم ادهم اسماعيل ومحمود حماد وسامي برهان فى القطر السوري وحامد عبد الله وسعد كامل من القطر المصري واحمد شبرين من القطر السوداني وغيرهم .

ولقد جال الحرف العربي فى انحاء العالم مع لوحاتهم والتقى فيما التقى بالحرف العربي فى مهاجره على لوحات الفنانين العارضين المعاصرين .

(19) انظر فيلكس كلي فى كتابه ــ الكتابة والفن فى اعمال بول كلي .